اثر الحروب

في الامم القديمة والحديثة

(٢)

فرنسا

لم يكن في اوربا شعب افضل بنية من الشعب الفرنسوي ولا نكبت امة حديثة باكثر مما نكبت به الامة الفرنسوية في سبيل الحرب وطلاب المجد . فان الغاليين سكان فرنسا القدماء فرع من السلالة السلتية او الكلتية فصاروا بالفتح غاليين رومانًا . وبعد ذلك تقوّى دمهم في الشمال والشرق بما امتزج به من الدم الجرماني (التوتوني) دم آهل اسكندناوبا (الدنمرك واسوج ونروج) ودم الفرنك سكان جرمانيا الوسطى . ثم هاجر في الازمنة الاخيرة جمٌّ غفير من ولاية الالزاس الجرمانية الى فرنسا فاصبحت الاسماء الجرمانية كثيرة التداول في الطبقات الفرنسوية العالية

ولما كانت الحرب تعمل بالامم عكس عمل الانتخاب الطبيعي فتبقي الضعيف وتفني القوي (كما جاء في المقالة السابقة) فقد فعلت برجال فرنسا فعلها فقصرت قاماتهم واضعفت مزية الابتكار والابتداع فيهم . ولكن الارومة الطيبة تتجدد وتنتعش وقد لاحت تباشير هذا التجدد في فرنسا في العشرين سنة الاخيرة . فان السلام والامن وحب العمل والسعي والاقتصاد تمكن قوات الانتخاب الطبيعية من العمل وهذا يقضي او التجدد المثار اليه . فقد جرحت الامة جروحًا بالغة بايدي ابنائها وهي الآن تتماثل او الشفاء . قال الاستاذ البرليون جيرار في كتابه « الحضارة الفرنسوية في القرن التاسع عشر » ما يأتي :

« ليس العقار ولا المال ولا المجد الماضي ولا الجاه الحاضر شيئًا اذا كانت الامة قد فقدت الروح التي تدبُّ في صدور رجالها . فان ثروتها تنتقل الى ايدٍ اقوى من يديها ويبيت جاهها هزؤًا وسخرية . ولقد اتفق مرة منذ عشرين سنة ان حسب الفرنسويون انهم انحطوا الى هذا الدرك اذ ارتفعت اصوات الناعبين بالسوء من منافسيهم وكثيرين من قومهم بين رجل محب للعجب واثارة الخواطر . وآخر محب للجمال يطلب ان تظهر امتهُ بمظهر جديد أكثر انطباقًا على الذوق العصري . ووطني صادق الوطنية عثر جدهُ واقل نجم سعدهِ . لكن نعيبًا مثل هذا اذا بلغ صداه اسماعنا الآن لاح لنا ضعيفًا وغريبًا وموسومًا بالحمق والجهل . ذلك بان اعظم ما يملك الفرنسويون الآن حيوية قوية ونشاط

لا يغلب . فهم في القرن العشرين بين روّاد الحضارة ومهدي سبل تقدمها وارتقائها كما كانوا في سائر الازمنة ... ربما كانت فرنسا امة قديمة وامة مجروحة ولكن قلبها القوي ينبض وحياتهُ لا تقهر »

في قاعة فيارتس بمدينة بروكسل صورة من ايام نابليون عنوانها « منظر في جهنم » وهي تمثل نابليون واقفاً ويداهُ مكتوفتان ووجههُ ساكن وقد أخذ يهبط الى الجحيم . وامامهُ اربعة ملايين رجل ارسلتهم اطاعتهُ الى القبر قبل الاوان وهم ينظرون اليهِ بوجوه بائسة كأنهم يؤنبونهُ على ما فعل بهم . ونصفهم فرنسويون والنصف الباقي غرباء . وخلفهم اشباح الملايين وملايين الملايين ممن خيّل الى المصور انهم يكونون نسل الذين اودت بهم مطامع نابليون من زهرة أهل اوربا لو بقوا احياء .

هؤلاء اتوا من الغيط والمعمل والمدرسة — رجال بين الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين ثم لما لم ينجُ منهم ناجٍ جيء بالاصغر والاكبر على حدّ قول نابليون ان الغلام يوقف الرصاصة كالرجل . وقد قال الاستاذ هيكل الالماني : كما كان الشاب شديد البنية عالي التربية صحيح التركيب كان ادنى الى القتل بالبندقية او المدفع او غيرهما من ادوات الحضارة . وقال سيك الالماني : اخذ نابليون في حروبهِ كل طوال القامات وفرقهم على ميادين القتال فخرج معظم الفرنسويين بعد ذلك قصاراً صغار القدود حتى اضطر اهل الشأن غير مرة الى تخفيض مستوى القامات بين المطلوبين للخدمة العسكرية وكان نابليون يقول : اتركوا الجنود يموتون وملاحهم في ايديهم . ان موتهم مجيد وسننتقم لهم . وانتم تستطيعون ان تملأوا الفراغ الذي يتركهُ الجندي . وجندي عظيم مثلي لا يبالي مثقال ذرة بحياة مليون نفس »

وبعد معركة وغرام بدأت فرنسا تشعر بضعفها . وعظم الفرق بين جيشها الذي حارب في معركتي « ألم » و« ينا » والجيش الذي حارب في المعارك المتأخرة اذ كان الجيش الاول مؤلفاً من نخبة الرجال والثاني من شبان اخذوا بالقرعة قبل السن وادمجوا في الجيش فاضعفوا قوة ثباتهِ . وبعد غزوة موسكو لم يعد من الستمئة الف الذين عبروا نهر نيمن لفتح روسيا سوى عشرين الفاً عضهم الجوع وحرّاهم البرد وغادرهم التعب والاعياء يترددون في مثل الخلال . ومع ذلك كلهِ لم تضعف عزيمة نابليون قيد شعرة على قهر جرمانيا وتأديب روسيا فدعا جميع شبان البلاد لحمل السلاح فوعدهُ انجلس بثلاث مئة وخمسين الفاً . وكانت بالوعة روسيا قد ابتلعت ٥٠٠ الف من الفلان الذين سنّهم دون العشرين . وكان الفلاحون يجودون بابنائهم طعاماً للمدافع

ولكن كثيرين هالهم استنزاف قوة الامة الى هذا الحد . فلم يمضِ نصف سنة على فقد نصف مليون من الرجال حتى نظم نصف مليون غيرهم ولكن معظمهم كانوا صغاراً وغير متدربين على فنون القتال واساليبه . وقد لوحظ ان « الانفار »المولودين في سنة «الارهاب» (من سني الثورة الفرنسوية) كانوا دون سابقيهم في صلابة عودهم وان لم يكونوا دونهم في شجاعتهم بل تهوُّرهم . وقد حاول نابليون بجميع الوسائل ان يبث في صدورهم روحه الذي لا يقهر فلم تعبه اسارة الولدان ابطالاً وانما اعياهُ سدّ الخسارة التي طرأت على الجيش سنة ١٨١٢ (سنة غزو روسيا) . ولما لم يجد امامهُ جنوداً جرَّ الغلمان الى المعمعان ليملأ القبور ابطالاً . ولقد عزي الى نابليون قولهُ « ان دخلي يبلغ مئة الف رجل » ولكنهُ بالغ في الاسراف فانفق اكثر من دخله بكثير

افاض الكتاب الفرنسويون في بيان عيوب امتهم ونقائصها واعترفوا بكثير من تلك العيوب والنقائص رغبة في الاصلاح فتناول اعداء امتهم ذلك الاعتراف وبالغوا فيهِ وبنوا الملالي عليهِ فقالوا ان فرنسا الحديثة (وسائر الامم اللاتينية معها) صائرة الى الاضمحلال وانها جاوزت عنفوان الشباب وبلغت ضعف الشيخوخة وعقمها بعد ما سئمت مقامها الاول في القارة الاوربية الى دولة فتية اصغر منها سنًّا وابعد همة واكثر اقداماً . ولو لم تكن قد فقدت حولها وقوتها تماماً لكان السلام والامن يجددان لها شبابها

هكذا قال الناعون بالسوء الناعون على فرنسا شبابها الماضي ومجدها التالد . اما انا فاقول ان هرم الامة ليس نتيجة طول عمرها بل نتيجة الحرب وما تستنزفهُ من دمها واخذ دم المهاجرين الضعفاء عوضاً عن دمها القوي . وقد ذاقت فرنسا النكال من الحروب ولكنها لم تفقد شيئاً كثيراً بالمهاجرة منها واليها

وقد استدل الباحثون من بعض مظاهر العيشة الفرنسوية على ما نال فرنسا من الضرر بعكس عمل الانتخاب فيها . من ذلك تناقص المواليد شيئاً فشيئاً . وعندي ان سبب هذا التناقص بقاء الحذر اذ لا يتصور ان جنود حرس نابليون المشهورين بتهورهم يقللون عائلاتهم مراعاة للاقتصاد كما يصنع فرنسويو هذا الزمان . ويكفي شاهداً على ذلك ان فرنسويي كندا الذين لم تمسهم الحرب مشهورون بكثرة نسلهم . وهناك دليل آخر على بقاء الحذر في فرنسا وهو قلة الاقدام فيها على المشروعات التجارية بالنسبة الى غيرها من الامم الحية . فان الذهب المذخور في خزائنها يستثمر في الاكثر لعقد القروض مع

الدول وقلما يستثمر في الاعمال التجارية . وما ذلك الاّ لأن القروض الاجنبية تعود عليهم بفوائد اكثر وتكون المسئولية الشخصية فيها اقل . ثم ان قلة المدن الفرنسوية ذات المعامل يزيد تناقص المواليد اذ معظم زيادة المواليد بين الامم المتمدنة انما يكون في المراكز الصناعية التجارية

وقد سأل ادمون ديمولن في كتابه « سر تقدم الامم الانجلوسكسونية » عن سبب هذا التقدم او التفوق وقال في الجواب انهُ صحة مقياس المعيشة الانكليزية وجودة التربية وخلو المطالب المدنية والشخصية من العيوب التي تصم المعيشة الفرنسوية . فان تهافت الشبان في فرنسا وايطاليا على مناصب الحكومة وغيرها من المناصب الامينة الخالية من قوة الابداع والابتكار هو اعظم عيوبهم حتى لقد سمي في ايطاليا « امبياجومانيا » اي « جنون الجلوس » اشارة الى ان صاحب تلك المناصب جالس في مقعده لا يتحرك . ولكن لا يبعد ان يكون السبب المبالغة في تركيز الحكومة اي جعلها مركزية والاكثار من الموظفين والاقلال من الفرص في الاقاليم . فان تمليك الامة كلّ شيء حتى جهد افرادها سواء كان ذلك بالاشتراكية او بالمبالغة في التنظيم لا بد ان يفضي الى « جنون الجلوس » . وهذا هو سرّ تأخر الامة الفرنسوية عن الامم الانجلوسكسونية لا عيب في طبيعة افرادها

ومما انتقد به المنتقدون الامة الفرنسوية ما في آدابها وفنونها وسياستها وقضائها من الغرائب والشذوذ . واعظم هؤلاء الناقدين ماكس نوردو[1] . فانهُ الف كتاباً منذ عشرين سنة بعنوان « الانحلال » أي انحلال فرنسا اثار به خواطر الناس طرّاً وعزا فيه حالة فرنسا هذه الى ضعف موروث . وواقع الامر اننا لا نعرف شيئاً عن وجود امثال هذا الضعف الموروث في تاريخ الامم . وسواء وجد ام لم يوجد فانهُ لا يصدق على فلاحي فرنسا . نعم ان معيشتهم صعبة ولكنها ليست مضعفة للاعصاب وربما نالهم من تجانس المعيشة والجري على اسلوب واحد اكثر مما ينالهم من غيرها من اشكال اجهاد الاعصاب . فالانحلال الذي يصورهُ نوردو لنا ليس مسئلة وراثة فان لم يكن شذوذاً شخصياً فهو خلل شخصي لا محالة واصابهُ سوء العادات والتربية والاخلاق او الرغبة في اجتذاب مسمع الجمهور لغرض شخصي . فهو ليس في دم الامة . وليس في وجود المصورين الشاذين ولا الموسيقيين الغريبي الاطوار ولا الشعراء شاربي الافسنت ولا مروجي الاشاعات والاقاويل — ليس في وجود هؤلاء يسرحون ويمرحون في شوارع باريس دليل على انحلال امتهم . فاذا تغيرت « الموضة » الشائعة تغيروا هم

(١) فيلسوف المالي ولد سنة ١٨٤٩ واشهر مؤلفاته ومؤلفاته التي تبحث في الفنون والآداب والاجتماع

ايضاً · وكل انسان في كل امة بذوي حيث تزكو الرذيلة ويتشر الافسنت والافيون · وحالة مثل هذه قد تكون نذيراً بالسوء ولكنها ليست دليلاً على انحطاط الامة وان شر ما نسمع عن الفضائح الباريسية انما هو مختلق لارضاء مخيلات الشبان الذين يأتون باريس من عبر البحار وفي جعبهم الذهب الوهاج لينفقوه فيها

رأيت صورة هزلية صورت منذ اكثر من قرن وهي تمثل فلاحاً يحرث حقله وقد علت وجهه الكآبة والقنوط وعلا ظهره مركيز بفتح علبة سعوط من الذهب · ورأيت صورة هزلية اخرى صورت حديثاً وهي تمثل ذلك الفلاح نفسه لا يزال خلف محراثه بكآبته وقنوطه ولكن بلا مركيزه وقد حل محل المركيز جندي مدجج بالسلاح وقد ركبه المرابي فكان اشد وطأة عليه من المركيز على الفلاح لانه الاثر الظاهر لمن اتخذ الحرب تجارة

مرّ اربعون سنة ونيف وفرنسا عالمة وامام عينيها شبح الحرب · فان فقدها لولايتي الالزاس واللورين كان جرحاً بالغاً لعواطفها ولكبريائها · وسلوك الولايتين المفقودتين زاد عزم الامة الطبيعي على حرب الثرف او حرب الانتقام · ولكن أتضح على مرّ الزمان ان حرباً مثل هذه لن تنتهي بالنصر · وبعد سقوط بولانجه وحادثة دريفوس اخذ اهل فرنسا عامة يرتابون في وجوب تلك الحرب وفي حكمة الاقدام عليها · وما جاءت سنة ١٩١٣ حتى رأينا اهل الرأي في فرنسا يميلون الى ملاقاة اهل الرأي في المانيا عند منتصف الطريق · وقد شهدت في تلك السنة اجتماعاً كبيراً عقد في مدينة نورنبرج · وكان بين الخطباء البارون دستورنل دي كونستان نافاض في وجوب توثيق روابط الصداقة بين الامم · وكانت فرنسا مستعدة للصفح ان لم يكن للنسيان ولكن النظام البروسي العسكري في ولايتي الالزاس واللورين لم يسمح بذلك لان الالمان كانوا قد حرموا اهل تينك الولايتين حقوقهما المدنية وسموهما « اروبرنج » اي بلداً مفتوحاً وحظروا استعمال اللغة الفرنسوية فيهما · فلم ينسَ الجرمان والفرنسويون من اهلهما على السواء ما سامهم الفاتحون من أنف وهذا السبب لم يسع فرنسا النسيان · فلو انهما منحتا استقلالاً تاماً ضمن الامبراطورية الالمانية ومنح اهلهما الحقوق المدنية التامة لزالت من السياسة الاوربية هذه المسئلة التي لقبها الفرنسويون بحق « كابوس احلام اوربا »